أبناؤنا

كيف نعودهم العمل فى ميدان الخدمة الاجتماعية

بقلم الأستاذ محمد الهبياوى

نحن هنا نخاطب الجمهور ممن يتلقون دعوة الإصلاح الاجتماعى بالايمان والمبادرة إلى العمل ، أو بالايمان والنوم عن العمل إلى ما شاء الله .

ولسنا نريد فى هذا الخطاب أن نتحدث فيما وصلت إليه جهود الباحثين فى مسائل التربية وأطوار النفس من النظريات العلمية لنقنع به أحدا ، ولكننا نريد أن نضع أمام الجميع صورا يشاهدونها كل حين على مدار الحياة الخاصة فى البيوت والمجامع الأهلية وعلى مدى الحياة العامة فى الفضاء الواسع .

فمن هذه الصور أن الطفل لا يزال يأخذ من بيت أهله كل ما يسمعه و يراه حتى تنطبع فى نفسه هذه المسموعات والمرئيات ، فإذا كانت ألفاظا كلامية أصبحت عادة شائعة فى كلامه ، و إذا كانت خلقا حسنا أو رديئا صارت سجية مسيطرة على مظهر أخلاقه ، وإذا كانت حركة أو عملا ظلت فى أعماله وحركاته تقليدا ملازما وحكاية مألوفة .

ومثل هذه الصورة صورة أخرى تظهر حينما يتجاوز دائرة أهله فى بيتهم الخاص إلى دائرة رفاقه فى الحارة أو المدرسة ، فإنه حينئذ يأخذ عن هؤلاء الرفاق ما يقولون وما يفعلون ، ثم لا يلبث أن يمرن على ذلك و يألفه فيصبح عادة يتجرد عليها لسانه وتتحرك بها نفسه ولا يردها طبعه ولا تضيق عنها خواطره .

فإذا انتقل هذا الطفل إلى بلد آخر أخذ عمن يخالطهم فيه ما لم يكن قد رآه ولا سمعه فيما مضى من أيامه ، و ربما طال مقامه بين هؤلاء الخلطاء أمدا تتغلب فيه هذه البيئة الثانية على ما تركت البيئة الأولى فى نفسه فإذا هو شىء آخر غير الذى كان .

و إنك لتستطيع أن تجد شواهد هذه الحقيقة فيما تعيه الأسماع وفيما يقع تحت الأبصار ، فأنت ترى محصول الطفل من الألفاظ التى يستعملها فى التعبير عن أغراضه وميوله ، ومن العادات التى تصدر عنها أفعاله وعواطفه ، صورة مصغرة من الألفاظ والعادات التى تعرفها

فيمن نشأ على أيديهم ومن أثر فيه الاختلاط بهم ، وهذه مسألة لا يحتاج الانسان العادى فى معرفتها إلى شىء مما يقرره الباحثون فى أصول التربية ومكوناتها .

وقد أردنا أن نمهد للموضوع بهذا الذى قلناه لنظهر سهولة الجواب على السؤال نفسه : كيف نعوّد أطفالنا العمل فى ميدان الخدمة الاجتماعية ؟ . . .

عندنا البيت وعندنا المدرسة .

ففى البيت والد الطفل ووالدته ، وأخوه وأخته ، والخادم أيضا ، وهو بين هؤلاء جميعا ورقة ينطبع فيها كل لون يتصل بحسه من الأقوال والأفعال والميول والعواطف والأخلاق والعادات كما تنطبع الصورة ولونها على الورقة البيضاء ، فإذا حرص أبواه على أن يعتاد منهما ومن أهل البيت كلهم محاسن الأخلاق والعادات كالصدق والأمانة والسماحة والعدل والحق وعزة النفس وعلو الهمة ، وكالنظافة والنشاط والتجمل بما يليق واستنكار ما لا يليق والعطف على الضعيف ووضع الاحسان فى موضعه والقيام للجماعة بما يسعدها ويسعد الفرد فى ضمنها ، عرفا إذن كيف يجعلانه فى ميدان الخدمة الاجتماعية جنديا صغيرا . وكيف يزودانه وهو رجل كبير بمواهب البطل الذى لا يمل العمل فى هذا الميدان .

وإنا لنعتقد أن فى استطاعة كل والد ووالدة أن يجدا الطريق إلى ذلك ، فليس أسهل من أن يتحدث كلاهما إلى طفله بما يشعره أن الأطفال الآخرين أخوته فى قرابة الطفولة الوادعة ، ثم فى قرابة الجوار الودود ، ثم فى قرابة المواطنة والجنس ، ثم فى قرابة الانسانية التى تقيم الإخاء بين جميع الناس ، حتى إذا استقرت هذه المعانى فى نفسه أعطياه بأفعالها أمثلة التطبيق ، وأفهماه بعد ذلك أن الانسان الكامل هو الذى يبذل الخير بيده ولسانه ، ويجعل حصة من تفكيره وعنايته وقفا على هذا الخير . ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا إن تقصير الآباء والأمهات فى تعهد أطفالهم بهذا الغذاء الصالح لا يرجع إلى الجهل به أو العجز عنه أكثر مما يرجع إلى أنهم لا يتجهون إليه بارادة صادقة وعزم صحيح .

أما المدرسة فوسيلتها أوفر ومجالها أوسع ، فهى من صحة المعرفة وتمام الاستعداد بحيث تستطيع أن تشبع الطفل بما لا يشبعه البيت .

ناظر المدرسة أو ناظرتها كلاهما قدوة متبعة أمام تلاميذهما الأطفال ، ومعلم المدرسة أو معلمتها كلاهما أيضا هو هذا القدوة ، وكل شىء هناك مصدر للإيحاء وأصل للتقليد والمحاكاة ، ولا يزال هؤلاء التلاميذ الأطفال يتأثر بعضهم ببعض فيما تنضحه النفوس على الألسنة وما تلقيه الأفواه فى الآذان . وقد يحمد من مدارس رياض الأطفال أن تتعهد أطفالها بما يوقظ فيهم قوة الملاحظة ويدربهم على دقة الذوق وسلامة الانتباه ، ولكن

أليس من الحسن الجميل أن يتضمن النظام الذى يجرى عليه العمل فى هـذه الرياض دعوة الأطفال إلى مبـاريات فى مختلف وجوه الخير ، كإغاثة الملهوف ، وإقالة العاثر ومواساة المحزون ، وإجابة المضطر ونجدة المستجير ؟ ثم لماذا لا يمتحنون فيهم فضيلة الاحسان كاطعام الجائع وكسوة العارى وإدخال الأمل على قلب المريض اليائس والأخذ بيد الشيخ المتهدم والسبق إلى كل عمل طيب والاجتهاد فى كل دعوة صالحة ؟ ومن المفهوم أن يكون لأفاضل النظار والمعلمين وفضليات الناظرات والمعلمات نصيب عملى تتم به فى هذا الميدان أمثلة القدوة المستجابة .

والآن نرجو أن نكون قد وجدنا جواب السؤال : كيف نعوّد أطفالنا العمل فى ميدان الخدمة الاجتماعية ؟ وهو جواب ينقصه التفصيل وتفوته سعة الاستشهاد بكثير من الجزئيات الممكنة ، ولكنه مع ذلك يتير الطريق لمن يريد أن يعمل ، ونحن لا نحتم وسيلة بعينها ولا نتطلب للغاية المرجوة طريقا دون أخرى ، وإنما يعنينا أن ينشأ أطفالنا فى هذا الميدان جنودا مزودين على مدى الحياة بروح معنوية رفيعة .

نريد أن يدخل فى تصوير الطفل أن له أبا أبر وأرحم من أبيه ، اسمه الوطن ، وأن له أما أحنى وأرفق من أمه ، اسمها الأمة ، وأن له بعد البيت الأصغر الذى يلتى فيه أباه وأمه وإخوته بيتا أكبر وأرحب ، اسمه مصر ، نعم ، ونريد أن يدخل فى تصوره مع هذه المعانى أنه لايزال يعيش من نعم الله وفضل هـذا الوطن عليه بالهواء والماء والغـذاء والكساء وحرارة الشمس ونور القمر ، فنصيبه من الحب لا يعـدل له نصيب آخر ، وحقه من الوفاء لا يقوم به غير العمل الطيب يبذله فى ميادين الخير والإصلاح أبناؤه الأبرار الطيبون ما

محمد الهياوى